الجانب الإعلامي في الرسائل النيلية في العصر المملوكي

د. سلامة هليل الغريب *

تاريخ تقديم البحث: ٢٠٠٨/٣/٢٨ تاريخ القبول: ٢٠٠٩/٨/٧

ملخص

نهضت الرسالة الفنيّة في العصر المملوكي بعبء الجانب الإعلامي، خاصّة رسائل ديوان الإنشاء التي تكتب بأمر رسمي، ومن هذه الرسائل، الرسائل النيليّة التي تخصّ نهر النيل من حيث أمر وفائه، وكسر خلجانه، وإقامة احتفالات الخاصة والعامة بهذه المناسبات المتكرِّرة في كل عام.

وتناول البحث تفاصيل جزئيّة لمشاهد متعدّدة ومتكرِّرة في جلِّ الرسائل النيليّة، إضافة إلى توضيح الجانب الإعلامي في هذه الرسائل، والدور الذي قامت به في الكشف عن مدى أهميتها في هذا الجانب، ولا سيّما أنَّها تُعدُّ في مجملها بشارات رسميّة توجّه من السلطان وأولياء الأُمور إلى نوّاب الممالك وعامة الشعب.

Abstract

The Use of the Nile Letters as a Means of Communication in the Mameluke Era

The literary letters in the Mameluke Era were used as a means of communicating messages and information, especially those which are written after a formal command has been issued, such letters are called "a collection of composition". One of these letters is the Nile letter, which sheds lights on the Nile River, its loyalty, crossing its gulfs, and holding private and public celebrations in these yearly frequent occasions.

The research includs specific details about many sights mentioned in the Nile letters. These letters, as mentioned above, play a significant role in media. In addition, they are considered formal speeches from the governor to the representatives of the kingdoms and public.

* قسم اللغة العربية، جامعة الطفيلة التقنية.

ق النشر محفوظة لجامعة مؤتة، الكرك، الأردن.

مقدمة

نهض الأدب في مختلف عصوره بالجوانب الإنسانيّة في حياة الأُمم، واعتنى عناية فائقة بالجوانب التي تمثّل رغبات الإنسان وحاجاته الأساسيّة؛ فزاد الاهتمام بالنواحي التي لها علاقة مباشرة بحياة الفرد والمجتمع، وأيّاً كان الحديث عن دور الأدب في تصوير حياة الإنسان؛ فإنّ الحاجة تدفعه دفعاً إلى إنتاج كل ما يجعله يشعر بالأمن الحياتي ولو كان ذلك من نسج خياله الأفلاطوني.

ومهما يكن من أمر، فإنّ الأدب بأجناسه المختلفة أسهم إسهاماً كبيراً في تصوير واقع الإنسان وآماله، وكان للشعر دور بارز في هذا المجال، وعدَّ النقّاد الشعر الركيزة الأساسيّة في حمل العبء الأكبر من تصوير مشاعر الإنسان وعواطفه وهمومه وهواجسه؛ ولذا تجد أنّ إنتاج الشعراء منذ بزوغ فجر الشعر غزيرٌ، وكذلك تجد جهداً كبيراً من النقّاد في وصف هذا الإنتاج وتحليله ونقده؛ ولذا عجّت المكتبة الأدبيّة بالأعمال التي تناولت الجانب الشعري في وصف النفس البشريّة، ولكنّها في مجال النثر مقارنة بالشعر، ما زالت متواضعة، وهذا الأمر يدعو إلى النظر والتأمّل في هذا الجانب، وتلمُّس مدى إسهاماته في إضاءة خبايا النفس الإنسانيّة، ولا سيّما وقد كثرت الأعمال الفنيّة في مجال النثر الفني في عصور الأدب اللاحقة لعصور ما قبل التدوين، خاصة في موضوع الرسالة الفنيّة التي اكتمل نضوجها في كنف دساتير الإنشاء.

وقد تنوّعت الأغراض التي عُنيت بها الرسالة الفنيّة، وأصبحت تزاحم القصيدة الشعريّة، خاصة في العصر المملوكي، على الرغم من تشجيع بعض السلاطين للشعراء كالظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والأشرف خليل بن قلاوون من أجل الإشادة بمآثرهم المجيدة، وتناسي ماضيهم الذي عاشوه في الرق[1]. ومع هذا الاهتمام بالشعر، فقد ازدهرت الرسالة الفنيّة، وقامت في كثير من الأحيان مقام القصيدة، إضافة إلى وجود عدد من الكتّاب الذين نهضوا بالرسالة الفنيّة، إلى جانب دورهم الشعري؛ إذْ جمعوا بين الفنّين الشعر والنثر.

وقد انعكس ذلك إيجابيّاً على الرسالة الفنيّة؛ إذْ نحت نحو القصيدة، وكثرت فيها الانزياحات[2]، وفشت فيها قوانين الشعريّة. وقد لاحظ هذا الانزياح معاصروهم من الكتّاب النقّاد؛ فذكر ابن خلدون(٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، أنّ كتّاب ذلك الزّمان أضفوا صفات المنظوم على المنثور من كثرة الأسجاع والتقفية[3]، وهذا الأمر يقود إلى القول أنّ الرسالة الفنيّة تجاوزت الرسالة بمفهومها التقليدي، بل أخذت حيّزاً كبيراً من الأدبيّة، وأصبحت لها رسوم تقرّبها من فن الشعر على يد ذلك النفر من الكتّاب الشعراء أمثال الشهاب محمود الحلبي (ت ٧٢٥ هـ/١٣٢٥م) والصفدي (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م) وابن نباتة (ت ٧٦٨هـ/١٣٦٦م) وغيرهم.

ومهما يكن، فإنّ الرسالة الفنيّة إلى جانب انزياحها نحو الشعر؛ فإنّها أخذت تزاحم القصيدة في أغراضها وموضوعاتها ومضامينها، والحديث يطول في تبيان هذه الأغراض ومضامينها.

---

(١) بدوي، أحمد: **الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام**، ط٢، دار النهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ص٣٧.

(٢) " فبرزنا – وشمس الأصيل تجود بنفسها، وتشير من الأُفق الغربي إلى جانب رمسها، وتغازل عيون النّور بمقلة أرمد، وتنظر إلى صفحات الورد نظر المريض إلى وجوه العوّد، فكأنّها كئيب أضحى من الفراق على فَرَق، أو عليل يقضي بين صحبه بقايا مُدّة الرمق، وقد أخضلّت عيون النّور لوداعها، وهم الروض بخلع حلّته المموّهة بذهب شعاعها...". الحلبي، الشهاب محمود بن سلمان (٧٢٥هـ/١٣٢٥م): **حسن التوسّل إلى صناعة الترسل**، تحقيق دراسة أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقيّة، وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٨٠م، ص٣٥٤-٣٥٥.

(٣) ابن خلدون، عبدالرحمن (٨٠٨هـ/١٤٠٥م): **مقدّمة ابن خلدون**، دار الجيل، بيروت، ص٦٢٨.

ومن هذه المضامين التي نهضت بها الرسالة الفنيّة في العصر المملوكي، دور الرسالة في وصف النيل، وما يخصّه في كورة مصر إبّان العصر المملوكي، وبيان الدور الإعلامي الذي قامت به هذه الرسائل.

النيل:

يمثّل النيل الرُّوح لمصر، فلا حياة لمصر من دون النيل، وقد أدرك القدماء من العلماء والمفكّرين أهميّة النيل، فقال هيرودت: "مصر هبة النيل"(١)؛ أي لا مكانة ولا حياة لمصر لولا النيل، وجاء في صحيح مسلم قول المصطفى (ﷺ): "سيحان وجيحان والفرات والنيل كلّ من أنهار الجنّة"(٢).

وفُسِّر قول الله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۞ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾*، بالجنّات التي بحافتيّ النيل من أوّله إلى آخره من الجانبين ما بين أسوان إلى رشيد وسبعة خُلج**، متّصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء، وزروع ما بين الجبلين كلّه من أول مصر إلى آخرها ممّا يبلغه الماء، وكانت جميع أرض مصر كلّها تروى يومئذٍ من ستة عشر ذراعاً(٣).

والنيل "نهر من أطول أنهار المعمورة أعذبها، وهو سبب حياة مصر، وقد كان يؤلّهه المصريون القدماء ويعبدونه، يجري من الجنوب إلى الشمال، مخترقاً بلاد السودان والنوبة والحبشة ومصر، حتى يصل إلى البحر الأبيض المتوسّط، فيصبُّ فيه بفرعين، أحدهما جهة الشرق، ويسمَّى فرع دمياط، والآخر جهة الغرب، ويسمَّى فرع رشيد"(٤).

وقد وصف كثير من العلماء ذلك النهر العظيم من حيث مكان منبعه إلى مصبّه، إضافة إلى وصف البلاد التي يمرُّ فيها، كما وصفوا مياهه؛ فذكر القلقشندي أنَّ ابتداءه من أوّل الخراب الذي هو جنوبي خط الاستواء، ولذلك عسر الوقوف على حقيقة خبره، وذكر أنَّ الحكماء قالوا: إنّه ينحدر من جبل القمر، وأمّا انتهاؤه، فإنّه يفترق فرقتين، فرقة شرقيّة، وأخرى غربيّة في شمال مصر، تنتهي الفرقة الشرقيّة بدمياط، والفرقة الغربيّة بقرية رشيد(٥).

ووصف الوطواط (ت ٧١٨هـ/١٣١٨م) النيل والأرض التي يمرُّ فيها، بقوله: "وهذا النهر يجري على أرض كالعنبر لوناً وريحاً"(٦). وأيّاً كان وصف القدماء للنيل في رحلاتهم؛ فإنَّ الحضارة الحديثة وقفت على حقيقة النيل من ابتدائه حتى انتهائه.

---

(١) ول ديورانت، **قصة الحضارة**، ترجمة د. زكي نجيب محمود، الإدارة الثقافيّة في جامعة الدول العربيّة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط٢، الجزء الثاني من المجلد الأول، ص٤٩.

(٢) النووي، محيي الدين بن شرف (٦٧٦هـ/١٢٧٧م): **شرح صحيح مسلم**، مكتبة الإيمان، المنصورة، ج٩، ص١٥١.

* سورة الدخان: الآيات (٢٥،و ٢٦، و٢٧).

** خليج المنهى حفره يوسف ﷺ، وخليج القاهرة حفره عمر بن العاص ﷺ، وخليج السردوس حفره هامان لفرعون، وخليج الإسكندرية وخليج سخا حفره أحد ملوك مصر بعد الطوفان، وخليج دمياط، القلقشندي، أحمد بن علي (٨٢١هـ/١٤١٨م): **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، تعليق محمَّد حسين شمس الدين، دار الكتب العلميّة، بيروت، ج٣، ص٣٢٩-٣٣٥.

(٣)ابن كثير،أبو الفداء إسماعيل (٧٧٤هـ/١٣٧٢م) :**تفسير القرآن العظيم**، ط١،١٤٠٨هـ/١٩٨٨ م، دار الجيل، بيروت،ج٤/ص١٤٤. المقريزي، أحمد بن علي (٨٤٥هـ/١٤٤١م): **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط المقريزيّة**، دار صادر، بيروت، ج١، ص٢٣.

(٤) وجدي، محمَّد فريد: **دائرة معارف القرن العشرين**، دار الفكر، بيروت، ج١٠، ص٤٣٩-٤٤٠.

(٥) القلقشندي: **صبح الأعشى**، ج٣، ص٣١٥، ٣١٧، ٣١٨.

(٦) الوطواط، جمال الدين (٧١٨هـ/١٣١٨م): **مناهج الفكر ومباهج العبر**، يصدره فؤاد سزكين ومعهد تاريخ العلوم العربيّة والإسلاميّة في إطار جامعة فرانكفورت – ألمانيا الاتحاديّة، ج١، ص٢٩٤.

ومهما يكن، فإنَّ هناك أمراً اهتمَّ القدماء به اهتماماً كبيراً في شأن النيل، وهو كيفية الاستفادة من مياه النهر، فكان لموسم فيضانه أمر غاية في الأهميّة، فراقبوا مواسم الفيضان ومواقيته، فظلَّ فلاحو مصر آلاف السنين يرقبون فيض النيل بقلوب واجفة[1]؛ من أجل استغلال هذه المياه في ريِّ مزروعاتهم، ولكنَّ ذلك الفيضان يُحدث خراباً وفساداً؛ فكان لا بُدَّ من حفر القنوات والترع من أجل الاحتفاظ بالمياه الزائدة.

ولهذه الفيضانات مواسم عرفها المصريُّون منذ أقدم العصور، فذكر المسعودي أنَّ النيل يبتدئ بالتنفُّس والزيادة بقية بؤونة وهو حزيران، وأبيب وهو تموز، ومسرى وهو آب، فإذا انتهت الزيادة إلى ست عشرة ذراعاً ففيه تمام الخراج وخصب الأرض وريع للبلد عام[2].

فبسبب هذه الفيضانات وأهمِّيتها في إحياء البلاد، رصد المصريون الأيَّام والشهور التي فيها يتمّ هذا الحدث؛ فدعت الحاجة إلى وضع مقاييس على هذا النهر من أجل أخذ حذرهم من الزيادة التي قد تكون مفرطة، والاستعداد لفتح القنوات والترع من أجل ريِّ المزروعات على ضفتيّ النهر، فكما أنَّ في فيضانه تبشيراً بموسم خير؛ فإنَّ في ذلك الفيضان تدميراً.

وذكر المقريزي أنَّ أوّل من قاس النيل بمصر يوسف(عليه السلام)، وضع مقياساً بمنف*، هو أوّل مقياس وضعه (عليه السلام)، وقيل: إنَّ النيل كان يقاس بمصر بأرض علوة إلى أن بُني مقياس منف، وإنَّ القبط كانت تقيس عليه إلى أن بطل واستمرَّ الأمر في بناء المقاييس حتى جاء الفتح فابتنى المسلمون المقاييس التي بقيت إلى الآن[3].

ومن أعجب غرائب النيل، أنَّه لمَّا فتح المسلمون مصر، أتى أهلها إلى عمرو بن العاص، حيث دخل شهر بؤونة (حزيران)، فقالوا: أيُّها الأمير إنَّ لنيلنا هذا سنّة لا يجري إلاَّ بها، وهو أنَّه إذا كان اثنا عشر من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بِكْر من أبويها، فارضيناهما فيها، وزيناها بأفضل الزينة، وألقيناها فيه، فقال: هذا ممّا لا يكون في الإسلام، فأقاموا أبيب (تموز) ومسرى(آب) وهو لا يزيد قليلاً ولا كثيراً، فلمَّا رأى عمرو ذلك، كتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يعرِّفه ذلك؛ فكتب إليه أن أصبت، وكتب رقعة إلى النيل فيها: من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر: "أمَّا بعد، فإن كنت تجري من قبلك فلا تجر، وإنْ كان الله الواحد القهَّار الذي يجريك، فنسأل الله أن يجريك"[4]، وبعث بها إليه، فألقاها في النيل، وقد تهيَّأ أهل مصر للخروج منها، فأصبحوا يوم الصليب وقد بلغ في ذلك اليوم ستة عشر ذراعاً"[5].

ونظراً لأهميّة النيل في حياة المصريين قدماء ومحدثين، فقد كانت تعقد الاحتفالات السنويّة بوفائه، يظهر فيها الخاصة والعامة أفراحهم وسرورهم منذ فجر التاريخ، يعبّرون في هذه الاحتفالات عن مدى سرورهم وغاية فرحهم

---

(١) ول ديورانت: **قصة الحضارة**، الجزء الثاني من المجلد الأول، ص٤٨.

(٢) المسعودي، علي بن الحسن (٣٤٦هـ/٩٥٧م): **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق محمّد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٨٨م، ج١، ص٣٤٢.

*اسم مدينة فرعون بمصر، وكانت منف أوّل مدينة بنيت بأرض مصر بعد الطوفان، الحموي، ياقوت (٦٢٦هـ/١٢٢٩م): **معجم البلدان**، دار صادر،بيروت،١٤٠٤هـ/١٩٨٤م،ج٥/٢١٣-٢١٤.

(٣) المقريزي: **المواعظ والاعتبار**، ج١، ص٥٧-٥٨.

(٤) القلقشندي: **صبح الأعشى**، ج٣، ص٣٢٢.

(٥) **المصدر السابق**، ص٣٢٢. ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف(٨٧٤هـ/١٤٦٩هـ):**النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، نسخة مصورة عن نسخة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٥م، ج١/ص٣٦

بهذه النعم التي ينعكس أثرها على حياتهم؛ ولذا اطَّرد الاحتفال بهذه المواسم، ووصل الأمر في بعض الحقب التاريخيّة إلى تقديس هذا النهر وتأليهه وعبادته، وكان من مظاهر ذلك إسكات غضبه عند انحباسه وعدم وفائه بتقديم عروس إليه في أبهى حللها حتى أصبح أمر هذه العروس يتكرَّر في كل عام، وبقيت هذه الطقوس الوثنيّة حتى أُبطلت في عهد المسلمين.

ومع اختفاء هذه الطقوس الوثنيّة، إلاَّ أنَّ الاحتفالات المشروعة بقيت نظاماً في كلِّ عام للتعبير عن فرحة النَّاس بمواسم الخير.

ولأهميّة الأمر، فقد نظم المبدعون من الشعراء والكتَّاب القصائد المطوَّلة والرسائل البديعة الجمّ الغفير، فقد دبَّج الكتَّاب فوق طروسهم أجمل رسائل الوصف الممزوجة بالبشارات والتهاني بأمر النيل ووفائه.

فأخذت هذه الرسائل على عاتقها وصف النيل من حيث وفاؤه وكسر خلجانه، وذكر الاحتفالات السنويّة التي تُعقد لهذه المناسبة في كل موسم، إضافة إلى دورها الإعلامي المتمثِّل في تقديم التهنئة للسلطان بهذه المناسبة في جانبٍ يكشف عن الفرح والشُّكر والدعاء.

وتنهض هذه الرسائل بالحديث عن الجوِّ العام المفعم بالفرح والسرور والدّعة الذي يحدثه وفاء النيل بعد انحباسه، حيث تعمّ البشائر أرجاء البلاد، وطبقات الشعب كافة، فذكر القلقشندي أنَّ هذه الرسائل قد خُصَّت بها مصر دون غيرها من البقاع التي يمرُّ بها النهر "فهذه المكاتبة من خصائص الديار المصريّة لا يشاركها فيها غيرها من الممالك، ولم يزل القائمون بالأمر بالديار المصريّة من قديم وهلمَّ جرًّا يكتبون بالبشارة بذلك إلى ولاة الأعمال اهتماماً بشأن النيل وإظهاراً للسُّرور بوفائه"(١).

وتمثِّل الرسائل في وصف النيل ووفائه وسيلة أساسيّة من وسائل الأعلام السياسي والاقتصادي، إذْ تُكتب هذه الرسائل في الأحوال جميعاً بتوجيه من السلطان؛ أي تصدر عن ديوان الإنشاء بشكلٍ رسمي، ولذا صرَّح القلقشندي قائلاً: "ولم يزل القائمون بالأمر بالدِّيار المصريّة من قديم وهلمَّ جرًّا يكتبون بالبشارة بذلك إلى ولاة الأعمال اهتماماً بشأن النيل وإظهاراً للسرور بوفائه"(٢).

والنَّاظر في هذا الأمر، يدرك أنَّ البشارة ليس هدفها فقط إظهار السرور والشكر والدعاء بوفاء النيل، بل حفز الفلاحين على الاهتمام بمزروعاتهم في ظلِّ توفُّر المياه الناتج عن كسر الخلجان والترع، ووصول المياه إلى أراضٍ تبعد عن النيل؛ ولذا نوَّه السيوطي(ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) إلى هذه الرسائل وبيَّن أهميَّتها في الجانب الإعلامي، وأشار إلى دورها العظيم في بثِّ الطمأنينة في نفوس العامة التي جلّها من المزارعين من خلال إرسال الرُّسل بهذه البشارات، قائلاً: "وجرت العادة كلّ سنة إذا وفّى النيل أن يرسل السلطان بشيراً بذلك إلى البلاد لتطمئن قلوب العباد، وهذه عادة قديمة، ولم يزل كتَّاب الإنشاء ينشئون في ذلك الرسائل البليغة"(٣).

والمنعم نظره في هذه الاقتباسات، يلحظ مدى الاهتمام بدور هذه الرسائل الإعلامي، وفي الوقت نفسه يتَّضح له مدى رسميّة هذه الرسائل.

---

(١) القلقشندي: **صبح الأعشى**، ج٨، ص٣٣٢.

(٢) **المصدر السابق**، ج٨، ص٣٣٢.

(٣) السيوطي، جلال الدين بن عبدالرحمن (٩١١هـ/١٥٠٥م): **حُسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة**، تحقيق د. علي محمَّد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧، ج٢، ص٣٤٢.

ويتمثَّل دور هذه الرسائل الإعلامي في أُمور منها في أغلب الأحيان: حفز النَّاس على مواصلة الشكر الذي لا يكون إلاَّ بالعمل في أرضهم، والاهتمام بمزروعاتهم، إضافة إلى إظهار السعادة والسرور من خلال الاحتفالات السنويّة التي تُقام بهذه المناسبة.

فهذه الرسائل ما هي إلاَّ وسيلة إعلاميّة تُسهم بشكلٍ كبير في حشد الجماهير من أجل عقد الاحتفالات، وإظهار الفرح والسرور، وقد أشار سعيد عاشور إلى هذه الظاهرة واصفاً إيَّاها بالدوريّة؛ إذْ إنَّ هناك احتفالاً يُقام كل عام، ويحرص المصريون على إحيائه بجميع طوائفهم منذ فجر التاريخ حتى يومنا هذا، وهذا الاحتفال يتمثَّل بوفاء النيل، وذكر أنَّ العادة اقتضت في الدولة المملوكيّة أنْ يكسر الخليج ابن السلطان بعد اليوم التالي لوفاء النيل(١).

والحقيقة أنَّ ثمَّة أمراً آخر يلفت نظر المتأمِّل في هذا الرأي، يدعو مرّة أخرى إلى التأمُّل في دور هذه الرسائل الإعلامي، إذْ يتجاوز دورها الإعلامي بثَّ الطمأنينة في نفوس العامّة، بل يظهر دور جديد بطله ابن السلطان، إذْ لا يقوم بكسر الخليج في يوم الاحتفال إلاَّ هو، ولا يوكل الأمر إلى غيره، كوالي المنطقة مثلاً، أو نوَّاب الممالك، فدور كسر الخليج لا يسند إلاَّ إليه. وفي هذا الأمر إشارة إلى أهميّة هذه الرسالة الإعلاميّة؛ ففي إظهار ابن السلطان في هذه الاحتفالات التي تمسّ حياة الناس وسط الجماهير المحتشدة ثمّة أمر ينبئ عن شأن هام، ويُؤذن بالتهيئة السياسيّة لاستلام مقاليد الحكم بعد والده، وفيه تهيئة لنفوس الناس بقبوله من خلال مخالطته لهم، ففي هذه العِشْرَةِ والمخالطة تقريب من القلوب، وبعث للتآلف والرضا عنه.

ومهما يكن من أمر الدعاية الإعلاميّة لهذه الرسائل، فإنَّ الكتَّاب قد تنافسوا في إنشائها، فقد اهتمَّ نفر منهم بوصف هذه الاحتفالات، ومدى سرور الناس ومبلغ شكرهم وثنائهم في الرسائل جميعها التي تناولها هذا الموضوع، فتكاد تتطابق هذه الرسائل في مشاهد ومحاور متكرِّرة فيها، كمشهد كسر الخليج، وفيضان الماء، ولهج الألسنة بالشكر والدعاء...، وبشارة السلطان والناس بهذا الخير العميم، إضافة إلى وصف المقاييس، وأحياناً وصف مناخ مصر قليل الأمطار من أجل إظهار أهميّة وفاء النيل.

فرسم الكتَّاب صورة حيّة لمثل هذه المشاهد المتمثِّلة في كسر الخليج، وفيضان الترع، وعتو المياه، وتوافُد الجماهير نحو مكان الاحتفال، وإظهار ما في نفوسهم من بهجة وسرور، ولهذا ذكر محمود رزق سليم أهميّة هذا الحدث، وأنباء هذا النهر العظيم، من حيث وفاؤه، واهتمام الأدباء به، قائلاً: "ولقد كان لأدباء مصر في هذا العصر وقبله – كتَّاباً وشعراء– جولات موفَّقة ومقالات صادقة من ذكر أنبائه، وتصوير شعورهم نحوه"(٢).

والحقيقة، أنَّ جُلَّ الأدباء الذين وفدوا على مصر وصفوا النيل ووفاءه، ولم يقتصر على أدباء مصر وحدهم، ومهما يكن، فقد كثر الأدباء الذين تناولوا تلك الظاهرة بالوصف والتحليل، وعلى أيّة حال، فإنَّ رسالة وصف النيل تتضمَّن مشهداً رئيساً تنبع منه، بل ترفده مشاهد كثيرة، وهذا المشهد يتمثَّل في مشهد وصف الماء في اليوم الأوَّل من فيضانه، ويعضد هذا المشهد مشاهد أخرى تُسهم في إبراز لوحته وتشكيل خيوطها.

---

(١) عاشور، سعيد عبد الفتاح، **المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك**، دار النهضة العربيّة، ط١، ١٩٦٢، ص١٩٧-١٩٩.

(٢) سليم، محمود رزق، **عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي**، مكتبة الآداب بالجماميز، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م، المجلد ٥، جزء٣، ص٢١٧.

فمن رسالة في وصف النيل عند زيادته زيادة مفرطة في سنة أربع وثمانين وسبعمائة، كتب بها فخرالدين بن مكانس*، (ت ٧٩٤هـ/١٣٩٢م)، جاء فيها: "ربَّنا اجعلنا في هذا الطوفان من الآمنين، وسلام على نوح في العالمين"(١). ففي هذا الجزء من الرسالة، إشارة واضحة إلى شدّة زيادة النيل والإفراط في فيضانه حتى استدعى هذا المشهد استحضار صورة الطوفان المشهور، وفي هذه الصورة وظيفة إعلاميّة تبيِّن مقدار الزيادة الكبيرة في فيضان الماء "فإنَّه قارب أن يمتزج بنهر المجرّة، بل وصل وامتزج وأرانا من عجائبه ما حقَّق أنَّه المعني بقول القائل حدّث عن البحر ولا حرج(٢). ولك أن تتصوَّر هذا الطوفان الهائل، والبحر الهائج، فقد بلغت أمواجه عنان السماء، وحجبت الرؤية، ولا شكَّ أنَّ في هذه الصورة مشهداً يبعث على الأمل والخوف معاً، فالنفوس مولعة بحب الخير، لكنَّها تخشى الغرق والهلاك في الوقت نفسه "وسقى النَّاس من ماء حياته المعهودة، كما شربوا من الموت أصعب كأس"(٣).

ومن رسالة أخرى كتب بها زين الدين عمر الصفدي*، (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) : "وأمَّا النيل، فقد أخذ الدار والسلطان... وبكى الناس عندما رأوه مقبلاً عليهم بالطوفان، وانسابت أراقم غدرانه في الإقليم، فابتلعت غدران أراقمه..." (٤).

فهذا الجزء من الرسالة يفصح عن الشدّة التي يجدها الناس عند فيضان النيل وقت وفائه، فالنيل في هذه الأوقات يصبح طوفاناً يُفْزِع النَّاس ويلجئهم إلى التضرُّع والدعاء بكشف غمّته، وهذا أديب العصر ابن نباتة يقول في هذا المشهد: "فلم يترك وعداً بل وعيداً إلاَّ وفّاه، ولا وهداً بل جبلاً إلاَّ أخفاه، أقبل كالأسد الهصور إذا احتدم واضطرم"(٥).

والوحشيّة واضحة المعالم في الصورة التي رسمها لفيضان النيل، وهي منتزعة من عالم الجماد والحيوان، فالصورة مفزعة ومرعبة، توحي بالهلاك والفناء، وفي السياق نفسه يصف ابن أبي حجلة* (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٥م) تيَّار الماء قائلاً: "فقد بلغنا أنَّ النيل تزايد دفعه وأدَّى إلى الضرر نفعه"(٦).

---

* عبدالرحمن بن عبد الرزاق بن مكانس القبطي المصري، كان أبوه من الكتاب في الدواوين فنشأ في ذلك؛ فتولّع بالأدب، وتولّى كثيراً من المناصب في مصر والشام، ولد في القاهرة ٧٤٥هـ/١٣٤٤م وتوفي مسموماً وهو عائد إلى القاهرة ٧٩٤هـ/١٣٩٢م، انظر ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني (٨٥٢هـ/١٤٤٨م): **الدُّرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، تحقيق: محمَّد سيد جاد الحق، ط٢، ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ج٣ /٤٣٨-٤٣٩.

(١) القلقشندي: **صبح الأعشى**، ج١٤، ص٣٠٣.

(٢) القلقشندي: **صبح الأعشى**، ج١٤، ص٣٠٤.

(٣) **المصدر السابق**، ج١٤، ص٣٠٤.

* القاضي زين الدين أبو حفص الصفدي، **كاتب الإنشاء في الشام ومصر**، كان كاتباً ذكياً تنقّل بين صفد ودمشق وغزّة ومصر، ولد ٦٩٣هـ /١٢٩٤م وتوفي في مصر (٧٤٩هـ/١٣٤٨م) الصفدي، خليل بن أيبك(٧٦٤هـ/١٣٦٢م): **أعيان العصر وأعوان النصر**، تحقيق: علي أبي زيد وآخرين، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م ج٣/٦١٠-٦١٣.

(٤) القلقشندي: **صبح الأعشى**، ج١٤، ص٣١١.

(٥) **المصدر السابق**، ج١٤، ص٣١٣.

* شهاب الدين أحمد بن يحيى التلمساني، عالم بالأدب، شاعر، من أهل تلمسان، سكن دمشق، له العديد من المؤلفات، من أبرزها: مقاماته وديوان الصبابة، مات بالطاعون بظاهر القاهرة (٧٧٦هـ/١٣٧٥م) الزركلي، خير الدين: **الأعلام**، دار العلم للملايين، بيروت، ط٨، ١٩٨٩، ج١/٢٦٨-٢٦٩.

(٦) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج١٤، ص٣١٥.

ومهما يكن من أمر، فإنَّ مشهد فيضان النيل وبلوغ الزيادة السنويّة برع الكتّاب في رسم صورة واضحة المعالم له، تكاد تتطابق في الرسائل النيليّة كلّها، وهي مشهد اندفاع الماء، وعلوّ تياره، وغمره للبرّ، ومحوه للمعالم، وإفساده للعمائر. فهم تارة يرسمون صورة لطوفان نوح، وتارة يرسمون صورة لأسد هصور لا يكبح جماحه أحد، وأخرى كفارس مُشهر سيفه لا يعرف إلاّ القتل، ولا شكَّ أنَّ في مثل هذه الصورة، بل هذا المشهد، دعاية إعلاميّة تهدف إلى هزّة الجمهور لاستطلاع الخبر، وحفزهم على الاهتمام بتقصّي الخبر والخروج من الركود والسكون، إلى التجمهر والحركة، وظهور الحشود في النظر إلى هذا المشهد الذي لا يتكرَّر إلاّ مرّة، بل مرّات قليلة في كل موسم.

وكما أنَّ صورة فيضان النيل توحي بالخوف والفزع، فإنَّ هناك صورة أخرى متكرِّرة في كل رسالة نيليّة ميدانها مشهد كسر الخليج، وفتح الترع، ولا شكَّ أنَّ هذا المشهد أكثر إيجابيّة من المشهد السابق؛ لأنَّ في ذلك إحياءً للأنفس والجماد على ضفتي النهر، فمن مشهد لكسر الخليج من رسالة لصلاح الدين الصفدي : "فكسر الخليج وقد كان يعلوه فرح موجه، ويهيل كثيب سدّه هول هيجه، ودخل يدوس زرابي الدور المبثوثة، ويجوس خلال الخبايا، كأنَّ له فيها خبايا موروثة، ومرق كالسهم من قسيّ قناطره المنكوسة، وعلا زبد حركته"(١).

فجاء في هذه الصورة وصف دقيق لمشهد كسر الخليج، وعتوّ الماء، وشدّة جريانه واندفاعه، واقتحامه للدور والمنازل، وتشويه معالم العمران، وتسوية الوهاد بالأباطح، فالصورة تُظهر مشهداً حيَّاً ومباشراً تكاد تلحظ فيه نبض الحياة والتفاؤل المشوب بالحذر، فالكاتب أطلق العنان لخياله في تشكيل هذه الصورة من التقاط كل نادرة وفريدة وحشدها في إبراز ذلك المشهد الذي يقوم على تناغم معطيات الحواس من اللون والحركة والصوت، إضافة إلى اللجوء أحياناً إلى أعماق النفس البشريّة، والاستفادة من مدركات الحسّ الفطري عند الكاتب.

وهذا المشهد يتكرَّر في كل الرسائل النيليّة، ولا شكَّ أنَّ في ذلك المشهد دوراً إعلاميّاً يتمثَّل في بشارة الخير، وعنوان أمل بعد قنوط النفوس وفزعها، وكذا يرتبط هذا المشهد عادةً بالسلطان الذي يأمر بكسر الخليج، بل يكلِّف ابنه بهذه المهمّة، ويتصدَّر السلطان وابنه الاحتفالات المُقامة لهذه المناسبة، فالرموز السياسيّة لا تظهر إلاّ في اليوم الثاني من الفيضان؛ وهو يوم كسر الخليج، فالمشهد الأول السابق ذكره يمثِّل الطوفان والرعب والوجه المفزع لعامة الناس، فالدور الإعلامي لذلك المشهد يوحي بالسلبيّة والفزع، وهذه الصورة كافية لبثِّ الرعب والخوف في أوساط العامة، في حين يمثِّل المشهد الثاني، وهو كسر الخليج، ذلك المشهد الذي تعلو فيه الابتسامات الوجوه، ويحدو التفاؤل العامة والخاصة، ولذا ارتبط هذا المشهد بدور إعلامي سياسي.

والمشهد الثالث في الرسالة النيليّة، مشهد قلّة الأمطار في مصر، وتعويض ذلك بوفاء النيل؛ فهذا المفصل من الرسالة النيليّة يكاد يتكرَّر في كل رسالة تصريحاً، أو تلميحاً، فمن ذلك قول محيي الدين بن عبد الظاهر* (ت ٦٩١هـ/١٢٩٢م): "فهو وإنْ كان خصَّ الله البلاد المصريّة بوفوره ووفائه، وأغنى به قطرها عن القطر، فلم يحتج إلى مدِّ كافه وفائه، ونزّهه عن منّة الغمام الذي هو إنْ جاد، فلا بُدَّ من شهقة رعده ودمعة بكائه"(٢).

---

(١) الصفدي، **أعيان العصر**، ج٣، ص٦٢٠.

* محمد بن عبدالله بن عبد الظاهر بن نشوان، أوّل من سمي بكاتب السر في الديار المصرية، كان صاحب ديوان الإنشاء فيها، مولده بالقاهرة ٦٣٨هـ/١٢٤١م ووفاته بدمشق ٦٩١هـ/١٢٩٢م. الزركلي، **الأعلام**،ج٦/٢٣٤

(٢) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج١٤، ص٣١٠.

وجاء أيضاً في هذا المشهد، قول شرف الدين بن فضل الله * (٧١٧هـ/١٣١٧م) : "وضاهت الأرض بها السماء، وأغنت عنه منّة الغمام، وعمّت مصر بالهناء حتى فاض إلى الشام"(١). وقد أشار الصفدي أيضاً وأحسن الوصف لهذا المشهد، قائلاً: "وأغنى قطرها عن القطر، فلم تحتج إلى مدّ كافه وفائه، ونزّهه عن منّة الغمام الذي إنْ جاد فلا بُدَّ له من شهقة رعده ودمعة بكائه؛ فهي البلاد التي لا يذمُّ للأمطار في جوّها مطار، ولا يزمُّ للقطار في بقعتها قطار، ولا تُرْمِد الأنواء فيها عيون النوّار، ولا تشيب بالثلوج فيها مفارق الطرق ورؤوس الجبال"(٢).

فالكتّاب في هذا المجال، ذكروا فضل النيل في نشر الخير ووفرته، وتوفير الأمن الغذائي لأهل مصر، مشيرين إلى قلّة الأمطار في هذا البلد، ولذا استغنى عن الغيث، وعواصف الشتاء، وقواصف الرعود بهذا النهر العظيم.

فهذا المشهد من الرسالة، يؤيِّد حقيقة مناخيّة توحي بوظيفة إعلاميّة أخرى للرسالة النيليّة، مفادها ذكر أهميّة النيل في حياة المصريين، فمقارنة النيل بالأمطار، وإثبات الأفضليّة للنيل تزيد من تعلُّق النفوس بهذا النهر؛ فهو يمثِّل الحياة لأهل هذه البلاد.

وهناك مشهدٌ آخر في الرسالة النيليّة، يمثِّل الجوّ الغامر بالفرح والسرور والبهجة عند بلوغ المقياس الحدّ المرغوب فيه، وفي هذا المشهد يصوِّر الكتّاب الناس وهم يجتمعون حول الخليج شاكرين المولى عزَّ وجل "وازدحمت في عبارة شكره أفواج الأفواه، وأعلم الأقلام بعجزها عمَّا يدخل من خراج البلاد"(٣).

وجاء في رسالة محيي الدين بن عبد الظاهر "وفاز كل أحد عند رؤية مائهِ المعصفر بتخليقه"(٤).

وهذا المشهد من الرسالة يمثِّل عفويّة احتشاد الجماهير التي رفعت الأكفّ نحو السماء شاكرة المولى على هذا الفيض الذي فيه حياة النفوس.

وعادة ما يكون آخر المشاهد في الرسالة النيليّة، توجيه البشارة لوليّ الأمر؛ لينال من الفرحة حظَّه، فمن رسالة لصلاح الدين الصفدي جاء قوله: "فليأخذ الجناب العالي حظَّه من البُشرى التي جادت باليمنّ والمنح، وانهلّت أياديها الغدقة بالسحّ والسفح، وليتلقَّاها بشكر يضيء به من الدُجى أديم الأُفق ويتَّخذها عقداً يحيط به من العنق إلى النطق"(٥).

ومن رسالة زين الدين عمر الصفدي "ومولانا يأخذ من هذه الأنباء بأحسنها، وكلُّها حسنة، ومن هذه البشائر المنتظر قدومها بأبينها يُمناً، وكلّها بيِّنة ميَمَّنة، وقد علم حق نعم الله الشكر فيوفِّيها منه حقَّها"(٦).

والكتّاب عندما يخصُّون أولياء الأمر بهذه البشارات، إنَّما يرغبون في بثِّ أنباءٍ إعلاميّة تكشف عن مدى السعادة الغامرة، والفرحة الكبيرة بهذه الأخبار التي تبعث في نفس المتلقِّي مشاعر الابتهاج، وانشراح الصدر، فهذه البشائر يطرب السلطان لسماعها، ويرغب في ذيوعها لما فيها من أنباء الخير العميم والبركة المباركة؛ ولذا فالكتّاب

---

* القاضي الكاتب شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله، كاتب السر، صاحب ديوان الإنشاء في الشام ومصر، ولد ٦٢٣هـ /١٢٢٦م وتوفي في دمشق (٧١٧هـ/١٣١٧م) الصفدي: **أعيان العصر** ج٣/١٩١-١٩٣.

(١) الصفدي: **أعيان العصر**، ج٣، ص١٩٧.

(٢) **المصدر السابق**، ج٣، ص٦٢٤.

(٣) **المصدر السابق**، ج٣، ص٦٢٥.

(٤) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج١٤، ص٣١١.

(٥) الصفدي، **أعيان العصر**، ج٣، ص٦٢٥.

(٦) **المصدر السابق**، ج٣، ص٦٢٢.

يتبارون في إنشاء مثل هذه الرسائل، ومرجع هذا التنافس عائدٌ إلى الفوز بقصب السبق في نيل رضا السلطان، والرغبة في هباته؛ إذْ يسعى كلّ كاتبٍ أن تكون بشارته هي أوّل ما يباشر سمع السلطان ليفوز بمبتغاه.

ولذا، يُعدُّ هذا المشهد من الرسالة، أمراً غاية في الأهميّة؛ إذْ ينطوي على رسالة إعلاميّة تكشف عن مدى اهتمام السلطان بأمر النيل ووفائه؛ من أجل توفير الأمن الغذائي للعامة والخاصة.

وقد اعتمدت هذه الرسائل الوصف اعتماداً أساسيّاً، ونهج الكتّاب فيها نهج الرسائل التعبيريّة التي أولت امتحان القريحة، ورياضة الخاطر اهتماماً، فسلك كل كاتب في رسالته مسلكاً يتوافق وثقافته وميوله. إلاّ أنّ المشاهد الأساسيّة في الرسالة النيليّة ثابتة لا تكاد تتغيَّر.

فالمتأمّل في هذه الرسائل، يجدها تفيض بوصف الطبيعة الصامتة والصائتة، في ثوب من العبارات والتراكيب الأدبيّة التي تقرِّبها من القصائد الشعريّة؛ فهي لوحات فنيّة، يجد فيها المتلقّي نفسه أمام رسّام حاذق يجيد صنعته من إبراز الألوان والتضاريس، فقد غلّفت هذه الرسائل بالصور الأدبيّة في إطار من الزخرفة اللفظيّة، وجلبت جوّاً غامراً من الحركة والألوان والأصوات، وتداخلت هذه العناصر وتمازجت، وشكّلت لوحة فنيّة فريدة، أسهمت في زيادة شاعريّتها شاعريّة الكتّاب في العصر المملوكي الذين قرّبوا فنّ الترسّل من فنّ الشعر كما ذكر ابن خلدون في مقدّمته، من أنّ المتأخّرين من الكتّاب أضفوا صفات المنظوم على المنثور من كثرة الأسجاع والتقفية[1].

والذي ساعد الكتّاب على رسم هذه المشاهد و أسهم في جمال العبارات الأدبيّة؛ كونهم شعراء يجيدون فن الشعر، بل ترك معظمهم إرثاً شعريّاً كصلاح الدين الصفدي، وابن نباتة المصري، ومحيي الدين بن عبد الظاهر، والشهاب محمود الحلبي وغيرهم.

أمّا دور الرسائل الإعلامي، فإنّه يتمثّل في البشارة التي تحملها مثل هذه الرسائل، إضافة إلى رسميّة إنشائها، فهذه الرسائل ليست رياضة للخاطر، بل يكلّف الكاتب إنشاءها رسميّاً كما أخبر الصفدي، قائلاً: "ولمّا كنت أنا بالدِّيار المصريّة سنة تسع وعشرين وسبعمائة، ألزمني القاضي شهاب الدين بن فضل الله – رحمه الله تعالى- أنْ أنشئ كتاباً في المعنى"[2].

والإعلام فيها موجّه نحو طبقة العامّة، بل عامّة الفلاّحين الذين يعتمدون على الفلح والزراعات في معيشتهم، لكنّه في الوقت نفسه، يكشف عن مدى اهتمام السلطان، وأولياء الأُمور بأقوات الشعب، ولذا تلهج ألسنة النّاس بالدُّعاء للسلطان ووليّ أمره.

خاتمة

خلصت هذه الدراسة إلى ببيانِ الأمور الآتية:

أولاً: توضيح دور الرسالة الفنية في الجانب الإعلامي، المتمثّل في البشارات التي تُبثّ في أوساط الخاصة و العامة.

ثانياً: لفت الأنظار إلى أهميّة الحاكم، وبيان مدى اهتمام أولي الأمر من السلاطين، وولاة عهودهم، وكافلي المُلك في الدولة بالشعب وقوته.

ثالثاً: بيان أهميّة النيل في حياة المصريين، وكيفية الاستفادة من فيضانه، وتصوير كسر خلجانه، ورسم صور حيّة للجماهير المحتفلة، التي ترفع أكف الدعاء بالحمد والثناء للمولى عزّ وجلّ، والدعاء لولي الأمر باليُمن والبركة.

رابعاً: وهناك دور إعلامي آخر تحمله هذه الرسائل، يتمثّل في كسر الخليج من ابن السلطان، إذ يوحي هذا الأمر بالدعوة إلى قبوله من أفراد الرعية.

---

(١) ابن خلدون: **المقدّمة**، ص٦٢٨.

(٢) الصفدي: **أعيان العصر**، ج٣، ص٦٢٢.